فلسفة الأخلاق عند إخوان الصفا وخلان الوفا

أ/ فاطمـــــــــــة

الزهراء بوحنك

جامعـــــــــة

الجزائر (2)

Abstract :

Le but de cette étude consiste en la présentation de la réflexion éthique des frères de la pureté qui n'a pas incité suffisamment d'intérêt dans le domaine de la recherche, ainsi que la mise au point des dimensions philosophiques de leur théorie éthique, de sa valeur cognitive et méthodologique. Nous essaierons d'employer leurs textes afin de contribuer au développement de la réflexion éthique islamique.

Dans le contexte du débat sur la question de la morale représente, une théorie d'éthique islamique à travers laquelle les frères ont exprimé une vision philosophique qui révèle l'importance de l'interaction et du dialogue entre la philosophie et la Sharia. Ils ont appelé aux éthiques pratiques, se basant sur des croyances préalablement théoriques dont ils veillent à concrétiser en réalité

مقدمة:

لا نجد بين فرق المسلمين جماعة عمدت أن تخلع على آرائها على اختلاف أنواعها صفة أخلاقية كما فعل إخوان الصفا[1] (946-1055)، فالسمة الأخلاقية بارزة في فكرهم حيث أنهم أفردوا للأخلاق رسالة طويلة في بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها ونكت من آداب الأنبياء وزبد من أخلاق الحكماء. ونستخلص من هذه الرسالة أنهم أبانوا عن آراء فلسفية وأخلاقية، وأن الجانب الأخلاقي يمثل الأساس في نظرهم لغرض تهذيب النفس، فلم يقصدوا من الفلسفة الأخلاقية إلاّ أن تكون مدخلا لما يريدون أن يقدموا من اعتقادات وما يطلبون من المريد من سلوك، وحتى اسم هذه الجماعة يدل على فكرة سامية في الأخلاق وهي الصداقة التي أسهبوا في الحديث عنها وفي بيان ضرورتها، فهم جماعة تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة[2].

ولكن الانضمام إلى أفرادها ليس بالأمر السهل، وما قالوه في هذا الصدد يبين أنهم لا يسمحون لأي فرد أن يلتحق بجماعتهم، إلاّ إذا توفرت فيه شروط ويتسنى له الاتّصاف

---

1 أحمد محمود صبحي، **الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1992، ص 301

2 المرجع نفسه، ص 201، 304

بصفاتهم، ولأجل هذا نراهم في الرسائل ينبهون عضو جماعتهم ألا يشغل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة وعادات رديئة وأخلاق سيئة فهم يتعبونه ثم لا ينصلحون، ولكن عليه بالشباب سالمي الصدور الراغبين في الآداب، المبتدئين بالنظر في العلوم، المريدين طريق الحق والدار الآخرة التاركين الهوى والجدل غير المتعصبين على المذاهب[1].

ويذهب الإخوان إلى أكثر من هذا في فرض الصفات التي يجب أن يتحلى بها العضو الجديد المنضم إلى جماعتهم، بحيث نجدهم يصرحون بأنه لا يصلح للصداقة وصفوة الأخوة من كان معجبا أو نكدا أو فظا أو مماحكا أو حسودا أو منافقا أو بخيلا أو جبانا أو مستحقرا لأقرانه وللناس أو متكلا على حوله وقوته[2].

ومن أهم ما يميز أخلاق عضو جماعتهم -وهو يعد في الوقت نفسه أصل لكل الأخلاق التي يدعى إليها- هو إيثار الغير على الذات أو تضحية الفرد بنفسه من أجل الجماعة، فدولة الخير تبدأ من خيار فضلاء يجتمعون على رأي واحد ومذهب واحد ويتعاهدون على ألا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة[3].

والصاحب عندهم يرتقي من مرتبة خلقية إلى مرتبة على أساس أن هذه الجماعة تتألف من أربعة مراتب، فالمرتبة الأولى أصحابها هم الإخوان الأبرار الرحماء الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة سنة حتى الثلاثين سنة وهم المبتدئون المتصفون بصفاء الجوهر والنفوس، والمرتبة الثانية هي مرتبة الأخيار الفضلاء وهم رجال بين الثلاثين سنة والأربعين سنة يتصفون بسخاء النفس والشفقة والرحمة على الإخوان، ثم مرتبة الإخوان الكرام الفضلاء بين الأربعين سنة والخمسين سنة، وهم أنصار الدعوة والمدافعين عنها بالرفق واللطف، وآخر مرتبة هي مرتبة الكمال وهي أرقى مرتبة ورجالها فوق الخمسين سنة، وأصحاب هذه المرتبة تصفو نفوسهم وترتقي حتى تصل رتبة النفس الموسومة بأنها ملائكية[4].

وغاية الأخلاق عند إخوان الصفا دنيوية وأخروية فالتكافل بين أفراد جماعتهم فيه عمران الدين ويفضي إلى السعادة في الآخرة، إذ أنه ليس من جماعة تجتمع على تعاون في أمر من أمور الدنيا والآخرة اشد نصيحة بعضهم لبعض من تعاون إخوان الصفا، وهذا لأن العلة التي تجمع بينهم هي أن يرى ويعلم كل واحد منهم أنه لا يتم له ما يريد من صلاح معيشة الدنيا، ونيل الفوز والنجاة في الآخرة إلا بمعاونة كل واحد منهم لصاحبه، والسبب الذي حفظهم على تلك الحال هو المحبة والرحمة والشفقة والرفق من كل واحد منهم والتساوي فيما يريد ويحب ويبغض ويكره لنفسه[5].

والاتحاد في الرأي والمعتقد والتعاون على أمور الدنيا والتفاني المطلق في سبيل الجماعة يخفي وراءه غرضهم في إقامة تنظيم سياسي وان تستروا وراء مدينتهم التي قالوا عنها أنها

---

1 إخوان الصفا، **الرسائل** الجزء الرابع، تحقيق خيرالدين الزركلي، المطبعة العربية بمصر، 1928،ص 114

2 المصدر السابق، ص 109

3 اخوان الصفا، **الرسائل** الجزء الأول، ص 131

4إخوان الصفا، **الرسائل** الجزء الرابع ص 119،120

5 المصدر السابق، ص 218، 219

روحانية ، وفي هذا يقولون:" ينبغي لنا – أيها الأخ – أن نتعاون ونجمع قوة أجسادنا، ونجعلها قوة واحدة ونرتب تدبير نفوسنا تدبيرا واحدا، ونبني مدينة فاضلة روحانية"[1].

في هذا السّياق نطرح الإشكالية التّالية: هل أخلاق هذه الجماعة تعبر عن الأخلاق الظاهرة أو العملية أم هي أخلاق نظرية فلسفية لا يعرفها إلا هم؟

1- ماهية الأخلاق**:** الأخلاق عند هذه الجماعة نوعان:

ا- أخلاق مركوزة في الجبلة (الطبيعة)

ب- وأخلاق مكتسبة بالعادة الجارية[2].

فالنوع الأول ينطبع في جبلة الجنين وهو لا يزال في الرحم وتصبح مركوزة في طبيعته شهرا بعد شهر حتى يستوفي تسعة أشهر ويحين وقت خروجه طفلا إلى الحياة الدنيا، وهذه الأخلاق مطبوعة في النفس ومركوزة فيها نتيجة أحكام النجوم في الدرجة الأولى، أي تأثير الكواكب في الجنين قبل الولادة أي أثناء الحمل[3].

والأخلاق المركوزة في الجبلة كما ذكروا هي تهيؤ طبيعي في كل عضو من أعضاء الجسد يسهل به على النفس إظهار فعل من الأفعال أو عمل من الأعمال أو تعلم علم من العلوم أو أدب من الآداب أو سياسة من غير فكر ولا روية[4]، وهي التي تأتي نتيجة الشهوات المركوزة في الجبلة، وهذه الشهوات تدعو النفس إلى طلب المنفعة لأجسادها ودفع المكروه عنها، بغض النظر عن الظروف التي تحيط بالإنسان وبالمجتمع الذي يعيش فيه، فإذا كان الإنسان مطبوعا على الشجاعة فإنه يسهل عليه الإقدام على الأمور الصعبة من غير فكر أو روية، وهكذا يكون حال من كان مطبوعا على الكرم والعفة والاعتدال وغيرها من الأخلاق المحمودة[5].

وأما من كان مطبوعا على الضد من هذه الخصال فهو يحتاج عند إظهارها إلى فكر وروية واجتهاد شديد ومشقة، وفي هذه الحال يكون الإنسان بحاجة إلى أمر ونهي ووعد ووعيد ومدح وذم وترغيب وترهيب، وبهذا يفسر إخوان الصفا ماهية الناموس الإلهي ويبررون وجود الأنبياء والرسل لهذه الفئة من الناس ذوي النفوس المريضة، إذ لا يمكنها أن تستقيم وتحتفظ بروحانيتها إلاّ بالإرشاد والتوجيه وما يستتبعهما من جهود ورغبة وأمر ونهي.

ولو كان الإنسان مطبوعاً على جميع الأخلاق لما تكلف عناء في إظهار كل الأفعال وجميع الصنائع[6]، ولكن الاستعداد لتقبل جميع الأخلاق المحمود منها والمذموم وإظهار جميع الصنائع والأعمال هو من طبيعة الإنسان المطلق فقط، بينما الإنسان الجزئي بحكم مولده واستيلاء أحد الكواكب عليه، فهو مفطور على تقبل إحداها فقط أي المحمود أو المذموم[7].

---

1 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

2 إخوان الصفا، **الرسائل** الجزء الأول، ص 234

3 المصدر نفسه، ص 227

4 المصدر السابق، ص ص 234 ،235

5المصدر نفسه، ص 235

6- المصدر نفسه ،الصفحة نفسها

7- المصدر نفسه ، ص 235، 236

النوع الثاني هي الأخلاق المكتسبة، فبعد الولادة ينضاف إلى الأخلاق المركوزة في طبيعة الجنين قبل الولادة، أخلاقا جديدة مكتسبة، ثم يستمر اكتساب الأخلاق إلى يوم الممات[1]، وهذه الأخلاق تكتسب إما بموجب العقل والفكر والروية، وإما باتباع أوامر الناموس ونواهيه لتصير عادة لأصحابها بطول المواظبة عليها وكثرة الاستعمال لها وعليها يجازون ويثابون[2]، وقد نتساءل هل كل الأخلاق المكتسبة عند إخوان الصفا أخلاقا فاضلة؟

والإجابة على هذا السؤال تكون بالنفي، إذ إن منها ما هو مذموم ومنها ما هو محمود، وان المحمود منها ما هي بموجب العقل وقضاياه ومنها ما هي بموجب أحكام الناموس وأوامره وهكذا حكم المذموم منها[3].

والأخلاق المحمودة هي أخلاق النفس العاقلة سواء ما كان منها في الجبلة مركوز أو مكتسب بالاجتهاد والروية، وخصال هذه النفس عندهم هي أصل جميع الخيرات، أما المذموم فهو غالبا المنسوب إلى النفس الغضبية والشهوية بشقيها المركوز والمكتسب وهي أصل جميع الشرور وسبب فساد أمور الإنسان كلها[4]، وشر الأخلاق المذمومة ثلاث خصال دعا إخوان الصفا إلى ضرورة الابتعاد عنها لأنها أساس لكل المعاصي، وهي كبر إبليس وحرص آدم وحسد قابيل، وعنها تتفرع شرور كثيرة[5]، وقبحوا الرذائل ونفروا منها ودعوا إلى الفضائل، وما كتبوه في رسائلهم الأخلاقية يخضع للفلسفة العملية والأديان ويكاد يتوقف على الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الصلاح وتهذيب الأخلاق[6].

وهكذا فمن الواضح في مسألة الأخلاق عند إخوان الصفا هو ميلهم إلى القول بأخلاق فطرية مركوزة في الجبلة، وهي قابلة للتعديل والتغيير، وذلك لأن الإنسان قد خلق ولديه القابلية لاكتساب الأخلاق والانتقال بها من حال إلى حال، فيمكنه تهذيبها وترقيتها من حال النقص إلى حال الكمال بواسطة المعارف والعلوم، ومن هنا أيضا كانت حاجة كل إنسان إلى الشرائع والأنبياء والأساتذة والمعلمين يأخذ منهم ويتخلق بأخلاقهم[7].

إنّ الطبيعة المركوزة في الإنسان سواء أكانت شهوانية أم غضبية يمكن للإنسان أن يقهرها لتصير على الاعتدال في سائر أحوالها، فلا تخرج عن العدل الذي توجبه السياسة الفلسفية والأوامر والنواهي والشرعية والسنن الدينية[8]، وفي ذلك يقول إخوان الصفا:" ومما تكسر به الأخلاق الرديئة والأفعال القبيحة من المقاومة لها بأضدادها من الأفعال الجميلة، كمن يقهر الحدة التي هي من قوى النفس الغضبية[.....] بالحلم، ويقهر العجلة بالأناة، والشهوة بالعفة، وسائر الأخلاق الرديئة والأفعال الجميلة"[9]،كما تستطيع النفس الناطقة (العاقلة) أن تؤثر في النفس الشهوانية بواسطة النفس الحيوانية التي تسمى الغضبية، وذلك

1- المصدر السابق ، ص 227
2-المصدر نفسه ، ص 259
3- المصدر نفسه ، ص 260،261
4- المصدر نفسه ، ص 287،288
5- اخوان الصفا، **الرسائل**، الجزء الرابع، ص 107
6- عبده الشمالي، **دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية وآثار رجالها**، دار صادر بيروت ، الطبعة الخامسة، 1979 ص 419
7 إخوان الصفا، **الرسائل**، الجزء الرابع، ص 18
8 المصدر نفسه، ص 342
9 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بأن تقهرها حتى تنقاد لها وتحملها على الاعتدال في سائر أحوالها، كما تقتضيه السياسة الفلسفية والأوامر والنواهي الشرعية[1].

على أن تغيير الأخلاق أو تعديلها في نظر الإخوان لا يتم بدون قناعة عقلية وتقوم العلوم والمعارف بدورها في هذا المجال، إذ يرون أن الأعمال الفاضلة صادرة عن معرفة عقلية، لذلك أعطوا للعلوم مسحة أخلاقية، وحولوها من الكم إلى الكيف بغرض هدي النفوس بالانتقال من المحسوس إلى المعقول[2]، كما حاولوا أن يحددوا المجتمع والناس لكي يتخذوا من الأفكار الأخلاقية ذات الصفة العقلية أساسا في تخلقهم[3]، وفي هذا السّياق يقولون:" أعلم يا أخي أن خير مناقب الإنسان العقل، فانظر الآن إن كنت عاقلا واختر من الأمور أفضلها ومن الأخلاق أجملها"[4].

2- وجوه اختلاف الأخلاق: الناس في نظر إخوان الصفا يختلفون فيما بينهم في أخلاقهم وطبائعهم من أربعة أوجه هي:[5]

أ- من جهة أخلاط الأجساد ومزاج تلك الأخلاط فيها، ويقصدون بذلك أن لتركيب الجسد الطبيعي وامتزاج العناصر الأربعة فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة تأثيرًا كبيرًا على نوع السلوك الإنساني[6].

ب- من جهة تربة بلدانهم واختلاف أهويتها.

ج- من جهة ما نشأ عليه الأفراد من ديانات أبائهم ومعلميهم وأساتذتهم ومن يربيهم ويؤدبهم.

د- من جهة موجبات أحكام النجوم وتأثيراتها منذ أن كان الجنين في رحم أمه، وهذا العامل هو الأصل وباقي العوامل فروع عليه[7].

أولا: أخلاط الجسد ومزاج أخلاطه:

مما ذكره إخوان الصفا في الرسائل أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم وركب جسده من رطب ويابس وحار وبارد، إذ خلقه من تراب وماء ثم نفخ فيه نفسًا وروحًا ثم جعل في جسده أربعة أخلاط أخرى هن ملاك أمور الجسد لا يقوم إلا بهن ولا تقوم واحدة منه من إلا بالأخرى، بامتزاجها يكون اعتدال الإنسان، وهذه الأخلاط هي البلغم، والدم، والمرة السوداء والمرة الصفراء، وتتحقق الصحة بأن تكون كل منها ربعًا لا يزيد ولا ينقص، إذا اعتدلت الأخلاط الأربعة هذه اعتدلت أخلاق الإنسان واستقام أمره[8]، فمحرورو الطباع من الناس وخاصة مزاج القلب يتميزون في الأكثر بالشجاعة والسخاء والتهور والحركة وشدة الغضب والانفعال و الذكاء.

---

1 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

2 محمود إسماعيل .**إخوان الصفا رواد التنوير**، عامر للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى ;1996 ص 111

3 أحمد علي زهرة، **إخوان الصفا وخلاف الوفا**، نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، سورية دمشق، الطبعة الأولى، 2004، ص 189

4 إخوان الصفا، **الرسائل**، الجزء الأول، ص 306

5 .إخوان الصفا ،**الرسائل** الجزء الأول ص 221

6 .عمر فروخ،إخوان الصفا ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،لبنان،الطبعة الثالثة 1981،ص 155،154

7 .إخوان الصفا،**الرسائل** الجزء الأول ص 229

8 .المصدر نفسه، ص 230

ولكن باردوا الطباع يتميزون بغلظة الطباع وبلادة الذهن وثقل الروح ورطبوا الطباع يتصفون بالميل إلى البلادة عادة، ولين الجانب، وسماحة النفس وسرعة النسيان ،بينما يابسي المزاج يتصفون في الأكثر بالصبر في الأعمال والتأني في الرأي وعسر القبول، ويغلب عليهم الصبر والحقد والبخل[1]، وفي إمكان تغيير الخلق ما يراه إخوان الصفا في أن العاقل إذا خاف أن يغلب عليه خلق من الأخلاق فعليه أن يقابله بالضد، فيقابل القسوة باللين، والبخل بالعطاء، والإصرار بالعدل.[2]

ثانيا: اختلاف ترب البلدان وتغير أهويتها:

تتغير ترب البلاد والمدن والقرى تختلف، وأهويتها من عدة جهات، فمنها ما يكون من جهة الجنوب، أو الشمال أو الشرق أو الغرب، أو على رؤوس الجبال، أو في بطون الأودية والأغوار، أو على سواحل البحار أو شطوط الأنهار، أو في البراري والقفار، والأرض الرملية والصخرية،كما أن أهوية البلاد تختلف بحسب اختلاف تصاريف الرياح الأربع، وبحسب مطالع البروج عليها، ومطارح شعاعات الكواكب عليها من آفاقها، وكل هذه الأمور تؤدي إلى اختلاف أمزجة الأخلاط، والّذي يؤدي إلى اختلاف أهلها، وطبائعهم و ألوانهم ولغتهم وعاداتهم وأرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصناعتهم وسياستهم.

فالذين يولدون في البلاد الحارة و يتربون هناك وينشؤون على ذلك يغلب على باطن أمزجة أجسادهم البرودة وهكذا شأن الذين يولدون في البلدان الباردة ويتربون هناك وينشؤون على ذلك الهواء يغلب على باطن أمزجة أجسادهم الحرارة [3]

ثالثا: موجبات أحكام النجوم:

تؤثّر الكواكب في تكوين الأخلاط وتناسقها أو تغلب أحدها على الآخر[4] ،فالذين يولدون بالبروج النارية في الأوقات التي يكون المستولي عليها الكواكب النارية مثل المريخ والأسد وغيرها من الكواكب فإن الغالب على أمزجة أجسادهم الحرارة وقوة الصفراء، والذين يولدون بالبروج المائية في الأوقات التي يكون المستولي عليها الكواكب المائية مثل الزهرة فإن الغالب على أمزجة أجسادهم يكون الرطوبة والبلغم، وهكذا شأن مواليد بقية الأبراج الأخرى[5]

ولا تؤثر الكواكب والأبراج على المواليد فحسب بل إن ذلك يتعداه إلى الميل والاستعداد لما يناسب ذلك الأمزجة من آراء ومعتقدات وأفعال وأخلاق[6]،فالطبيعة « المريخية » مثلاً تميل بأصحابها إلى التعصب والجدال والخصومات أكثر من غيرها، والطبيعة المشترية تميل بأصحابها إلى اللين والزهد والورع، وهكذا يكون أثر الكواكب والأبراج في طباع وأمزجة وأخلاق الناس[7].

رابعاً: التربية والنشأة والعادات الجارية.

---

1 المصدر نفسه ص 229-230.

2 نادية جمال الدين، **فلسفة التربية عند إخوان الصفا**، المركز العربي للصحافة، القاهرة 1983 ص 194.

3إخوان الصفا، **الرسائل** الجزء 1 ، ص 232، 233.

4 المصدر نفسه، ص 234

5 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

6 عبد الأمير شمس الدين، **الفلسفة التربوية عند إخوان الصفا**،دار الكتاب اللبناني العالمي، بيروت،لبنان، الطبعة الأولى 1988، ص 91.

7 إخوان الصفا **الرسائل**، الجزء الأول ص 236، 237.

الصبيان الذين ينشؤون مع الشجعان والفرسان ويتربون معهم يتطبعون بأخلاقهم ويصيرون مثلهم، وأما الصبيان الذين ينشؤون مع النساء والمخانيت والمعيوبين ويتربون معهم يصيرون مثلهم، وعلى هذا القياس سائر الأخلاق والسجايا التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر، إما بأخلاق الآباء والأمهات أو الأخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين وعلى هذا الأساس حكم الآراء والمذاهب والديانات[1].

ومن ذلك تأثير المهنة في أخلاق الإنسان، فالناس كما يرى الإخوان أصناف و طبقات لا يحصى عددها إلا الله جل ثناؤه، فمنهم أصحاب الصنايع والحرف والأعمال، ومنهم أصحاب التجارة والمعاملات والأموال، ومنهم أصحاب البنايات والعمارات والأملاك، ومنهم الملوك والسلاطين والأجناد، ومنهم المتصرفون والخدامون، ومنهم العاطلون، وأصحاب البطالة والفراغ، ومنهم أهل العلم والدين، وكل واحد من هذه الأقسام يتفرع إلى أصناف كثيرة، ولكل قسم وصنف أخلاق وطبائع وسجايا وأحوال أكسبتهم أعمالهم وأوجبتها لهم متصرفاتهم لايشبه بعضها بعضًا، وبهذا يختلف الناس من حيث أخلاقهم بحسب اختلافهم في طبائع أعمالهم[2]، وعلى كل حال فإنه مهما كان أثر جميع المؤثرات في الأخلاق عند إخوان الصفا ، فإنه لا شك أن إرادة الإنسان تؤثر إلى حد كبير في اتجاهه، وإلا فما معنى الوصايا التي وضعها الإخوان ليسلكها الإنسان فتتجو نفسه وتعود إلى الملأ الأعلى، أما غرضهم فإنه كان غرضا أخلاقيا، وقد استمدوا أسسه من مختلف الديانات والمذاهب، وأكدوا على السلوك الحسن، لأن كل فرد منهم يعتبر داعية لمبادئهم، ولا يمكن أن يكون داعية يحتذى به إلا إذا كان مثالاً للأخلاق[3].

3- قابلية الإنسان جميع الأخلاق:

يرى إخوان الصفا أن الله جعل في الأرض خليفة له من البشر ليكون العالم السفلي عامرًا بكون الناس فيه مملوءًا من المصنوعات العجيبة على أيديهم، قائمًا على النظام والترتيب بالسياسات الناموسية والفلسفية والعامية والخاصية معًا، وحتى يبقى العالم محافظًا على أتم حالاته وأكمل غاياته خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من تراب عجيب البنية ظريف الخلقة مختلف الأعضاء كثير القوى ثم ركبها وصورها في أحسن صورة تختلف عن سائر الحيوانات الأخرى ليكون بها مفضلاً عليها[4]، ثم نفخ فيه من روحه وربط ذلك الجسد بنفس روحانية من أفضل النفوس الحيوانية ليتمكن بواسطتها من الحركة والإحساس والإدراك، وليكون علامًا عاملاً فاعلاً ما يشاء ثم أيده بقوى روحانية سائر الكواكب في الفلك ليكون متهيئًا ومتقبلاً لجميع سائر الأخلاق، وتعلم جميع العلوم والمعارف والآداب والرياضيات والسياسيات،كما مكنه بأعضاء جسده المختلفة من ممارسة جميع الصنائع البشرية والأفعال الإنسانية والأعمال الملكية[5].

وذلك على أساس أن الإنسان قد جمع في بنية هيكله جميع أخلاط الأركان الأربعة وكل المزاجات التسعة، في غاية الاعتدال ليكون بها متهيئًا وقابلاً لجميع أخلاق الحيوانات

---

1. المصدر نفسه ص 1236

2. المصدر نفسه، ص 248

3. إخوان الصفا، الجزء الأول ص 228

4. المصدر نفسه، الصفحة نفسها

5. المصدر نفسه، الصفحة نفسها

وخواص طباعها،كل هذا ليتمكن من إظهار جميع الأفعال والصنائع العجيبة والأعمال المتقنة المختلفة والسياسات المحكمة، إلا أنّ إظهارها كلها بعضو واحد وخلق واحد ومزاج واحد يتعذر على الإنسان[1]، حيث يقولون« إن من الناس من هو مطبوع على تعلم صناعة واحدة أو عدة صنائع بسهولة في قبولها [.....] ومنهم من يحتاج إلى توقيف شديد [.....] وربما لا يفلح فيها إذا لم يكن فيها موافقاً للطبيعة و ما أوجبه له مولده، ومن الناس من لا يتعلم الصناعة البتة [.....] والسبب في ذلك أن الصناعة لا تأتي للمولود إلاّ بدلالة كوكب مثول برج العاشر من طالعه »[2]وفي كلام الإخوان عن الصداقة يحددون الصفات التي تربطهم بإخوانهم ويصرحون أن الإنسان كثير التلون لا يستقر على حال واحد، يتكون له خلق جديد وسجية جديدة كلما حدثت له في حياته حال جديدة من غنى إلى فقر أو من بؤس إلى نعمة أو من صحة إلى مرض [3]، ويذهبون إلى أبعد من هذا حين يقررون أن كل الأصدقاء يتلونون إلا ّ

إخوان الصفا وهذا لأن كل صداقة تزول عند زوال ما دعا إليها من منفعة،أما صداقتهم فإنه قرابة رحم وبها يعيش بعضهم لبعض ويرث بعضهم بعضًا، وذلك يعود إلى أنهم يعتقدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة، وإذا أحسن واحد منهم إلى أخيه فإنه لا يمن عليه بإحسانه لأنه يعتقد أنه يحسن إلى نفسه، وإن أساء إليه أخوه لا يغضب منه لأنه يرى أن ذلك منه لنفسه[4] .

4- خصال الزهاد:

من خصال المؤمنين عند إخوان الصفا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وذلك أن الزهد هو: «ترك فضول متاع الحياة الدنيا ة ترك طلب شهواتها والرضا بالقليل والقناعة باليسير من الذي لا بد منه.»[5]، وهذه الخصلة تتبعها خصال كثيرة من محاسن الأخلاق وجميل الأفعال.

ومن خصال الزهاد قلة الأكل وترك الشهوات حتى يكون الإنسان صحيح الجسم وجيد الحفظ وزكي الفهم و جلي القلب قليل النوم وصادق الرؤيا وخفيف النفس وحاد البصر ولطيف الفكر وصغي السمع وصحيح الحس وثابت الرؤيا وقابل للعلم[6].

ومن خصالهم العفة والتصوّف وهذه الخصلة تتبعها خصال محمودة و فضائل كثيرة فمنها الكف والورع والحفظ والوقار والتقى والأمانة و المروءة والكرم واللين والسكون والمراقبة والتوقي والصحة السلامة، ومن خصال الزهاد الكرم والمواساة والإحسان والإيثار،

---

1 المصدر نفسه.

2 المصدر السابق ص 222.

3 إخوان الصفا، **الرسائل** الجزء الرابع ص 111.

4 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5 إخوان الصفا،**الرسائل** الجزء الأول ص 280.

6 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والرحمة والصدقة والهدية، ومن خصالهم الحلم والأناة والحياء، والصفح والعدل والمحبة والقبول والتواضع[1].

بالإضافة إلى الراحة من العناء والتسليم للقضاء والصبر في الشدائد والبلوى وحسن العزاء، ومن خصالهم التوكل على الله والإخلاص في العمل والدعاء والصدق بالقول والتصديق في الضمير والنصح للإخوان والوفاء بالعهد[2]، هذا إلى جانب فضائل أخلاقية كثيرة يتحلى بها الزهاد، وفي الحقيقة يعد خطاب إخوان الصفا في هذا المقام دعوة صريحة لاقتفاء أثر الزهاد والتخلق بأخلاقهم والسير بسيرتهم لعلى المرء يفوز بمفازتهم .

فكان أن سار إخوان الصفا على خطى الصوفية منهجًا وسلوكًا، ولقد عبر عن ذلك دي بور (ت 1942) بقوله: «ومذهب إخوان الصفا في الأخلاق ينزع إلى الروحانية والزهد، وإن كانوا قد اقتبسوا من مختلف المذاهب»[3]

إنهم يقتربون من الصوفية في أخلاقهم الجماعية في بعض المقامات والأحوال كالزهد والتوكل والصبر والإخلاص ويسهبون في ذكر آداب الصحبة ولزوم الصديق[4]، ونجدهم يبخسون الجسد وشهواته وأن الإنسان على الحقيقة هو النفس،كذلك تنتهي مراتب السلوك عندهم بالفناء في الله حيث مفارقة الميول والصعود إلى ملكوت السموات والسعادة الأخروية عندهم أرفع وأعز من سعادة الدنيا[5].

خاتمة:

بعد ما تقدّم، رأينا في استقراء فلسفة الأخلاق عند إخوان الصفا أن ما صدر عنهم في سياق تناولهم للمشكلة الأخلاقية يعد نظرية أخلاقية إسلامية عبروا من خلالها عن رؤية فلسفة تظهر أهمية التفاعل والتحاور بين الفلسفة والشريعة، فهم في نزعتهم التلفيقية مزجوا بين الشريعة والفلسفة الهلينيسية بحيث تكاد تكون العلوم والمسائل النظرية مأخوذة من المذاهب اليونانية المتأخرة خاصة الفيثاغورية الحديثة والأفلاطونية المحدثة[6]، أما الأخلاق التي نادوا بها فهي أخلاق عملية قد اعتمدت بشكل مسبق على معتقدات نظرية آمنوا بها وسعوا إلى تحقيقها في الواقع [7].

وهكذا نجحوا في التوفيق بين النظر والعمل في ظل دعوة سرية ذات بعدين أساسيين: البعد السياسي والبعد الديني، وكجماعة يحكمها نظام دقيق حريص على انتقاء الأتباع، فعقدوا فصولاً طويلة لشرح الصفات الخلقية التي يجب أن يتحلى بها الصديق والأخ الوفي، وحددوا المهام التي تلقى على عاتقه والأعباء التي يفرض عليه تحملها في سبيل نشر ما يدين به من مبادئ حتى تعم المجتمع، وأفاضوا في تعداد العيوب التي لا يجوز لصاحبها أن ينتمي إلى جماعتهم، ولا شك أنهم عاشوا مبادئهم ومارسوا معتقداتهم بقدر إخلاصهم لجماعتهم وولائهم لها.

---

1 المصدر نفسه، ص 282.

2 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3 دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**،ترجمة: محمد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ط 4، 1957، ص 173.

4 أحمد محمود صبحي ،**الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي**،ص 202.

5 إخوان الصفا ،الرسائل الجزء الرابع ص 318.

6 أحمد محمود صبحي ،**الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي**،ص 305.

7 غسان علاء الدين ،**الأخلاق عند إخوان الصفاء و خلان الوفاء**، دار الحوار للنشر والتوزيع،سوريا، الطبعة الأولى ،2003،ص 121.

المراجع:

1-المصادر:

-إخوان الصفا، **الرسائل** الجزء 1، تحقيق خير الدين الزركلي، المطبعة العربية بمصر 1928.2-إخوان الصفا، الرسائل الجزء الرابع، تحقيق خير الدين الزركلي، المطبعة العربية بمصر،1928 .

2-المراجع:

-أحمد محمود صبحي، **الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة 1992.

-عبده الشمالي، **دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها**، دار صادر، بيروت، الطبعة الخامسة، 1979.

-محمود إسماعيل، **إخوان الصفا رواد التنوير**.عامر للطباعة والنشر, المنصورة مصر,الطبعة الأولى، 1996

-أحمد علي زهرة، **إخوان الصفا وخلان الوفا**، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق الطبعة الأولى، 2004.

- عمر فروخ، **إخوان الصفا**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1981.

-نادية جمال الدين، **فلسفة التربية عند إخوان الصفا**، المركز العربي للصحافة، القاهرة، 1983.

-عبد الأمير شمس الدين، **الفلسفة التربوية عند إخوان الصفا**، دار الكتاب اللبناني العالمي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1988.

-إنعام الجندي، **الفلسفة عند العرب**، دار السياسة، بيروت.

-غسان علاء الدين، **الأخلاق عند إخوان الصفا وخلان الوفاء**، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الأولى، 2003.

- دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، الطبعة الرابعة ،1957